

مكتبة المناعي.. من خزانة الشيخ المحمود.. من «رواشن» كتبه

الوقت - حسين المحروس:

لا تغفر لمن يأخذك إلى خزانة كتب شخص في مكانة الشيخ المحمود تنظر إلى كل ما فيها لكنك لا تستطيع تقلب خاطر فيها. الذين يجيئون إليه كل يوم أيضا لا يستطيعون. لا يمس أحدهم كتاباً إلا بأمر . في قرية "قلالي" بالمحرق بيت ومكتبة الشيخ عبدالمحسن المحمود مملوءة بالوقار والسكينة والمعرفة الدينية والتاريخ والمخطوطات النادرة ورائحة مجلدات الكتب والسؤال أيضا . مجلدات متراسة على الأرفف ورواشن الكتب صارت تلفت عين الطفل أحمد المناعي. كلما أحاط الناس بصوت الشيخ قلب عينه في المجلدات الكبيرة. يقول المناعي "كنت في الحادية عشرة من عمري أتحت لي الفرصة لزيارة مجلس الشيخ المحمود بصحبة احد أفراد عائلتي . استمتعت برؤية الكتب وهي مرصوصة على الأرفف والرواشن . وكانت بأحجام مختلفة، وبهرني بشكل خاص الكتب ذات الأحجام الكبيرة المجلدة تجليدا جيدا، ورغبت في تلك اللحظات تفحصها والاطلاع على محتوياتها، غير ان وقار الشيخ وهالته الدينية كانت تضي على المجلس احتراماً وهيبة تمنع طفلاً مثلي أن يقوم بذلك أو حتى يسأل عن طبيعتها أو محتوياتها ."

رواشن الكتب

ينشغل الناس بالشيخ ويصيخون السمع لكلامه: مسائل فقهية، أحاديث، فتاوى، رأي في مسألة اجتماعية تسندها مُدونة من التاريخ وحكاية تشبهها لولا مسافة الزمن. في مجلسه القضاء. يتسلل الطفل أحمد وحده هذه المرة. يضع عينيه على نافذة مجلس الشيخ.. الشبابيك الخشبية.. على رواشن الكتب. "عرف الشيخ عبدالمحسن بثقافته الدينية الواسعة التي اهلته للفصل والفتوى في القضايا الاجتماعية والدينية، وإبرام عقود الزواج في القرية. كما عمل خطيباً بمسجد سالم بن درويش المناعي، واعتقد أنه مارس مهنة التعليم في بدايات حياته بمدرسة الحد الابتدائية آنذاك. وتوفي شيخاً معمرًا في منتصف خمسينات القرن الماضي." رحل الشيخ. مكتبته التي كانت تصح بالإصغاء إليه وبالسؤال هُجرت. لا معنى لرواشن الكتب من دون إنسان. رحل الشيخ فانتقلت أسرته من "قلالي" للعيش في مدينة "الحد" شمال شرق المحرق. أهملت رواشن الكتب. استطاعت الأسرة لاحقاً الاحتفاظ ببعض مجلدات الكتب. يقول المناعي "ثمة حاجة ملحة جداً للبحث والكتابة عن مثل هذه المكتبات النادرة وعن تلك الشخصيات التي كانت مختلفة بعلامة القراءة وسط أمة لها علامتها الواضحة أيضاً"

خزانة عبدالرحمن المناعي

وهبته مكتبة خاله ومدرس اللغة العربية عبدالرحمن المناعي مزاجاً آخر . حملت إليه الشعر والأدب. تأثر بها وبه، بسيرته حتى صار تلميذ الابتدائية "أحمد" يشتري الدوريات وما يأتي من مصر وغيرها من مجلات وصحف. قراءة مكثفة، متواصلة لا تهدأ، أعدتها تلك المناقشات التي تعقب كل قراءة مع ابن خاله علي عبد عبدالرحمن المناعي. صار كل منهما يحمل ما يقرأ مفتوناً للآخر وليس حينها ثمة مصدر للمعرفة غير القراءة. قليل ذلك الذي يأتي إليك . استمر بهما لحال حتى نهاية المرحلة الثانوية العام. 1962 مكتبة خريج القسم العلمي صارت ممتلئة بكتب الأدب والفلسفة والتاريخ.

عمل المناعي الخال مديراً لبعض المدارس. كان من أوائل من ابتعثوا في دورات تعليمية وتربوية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت في بداية الخمسينات. تخصص في تعليم اللغة العربية. وعرف بموهبته الأدبية وحسن الخط . برع في مجال التعبير الأدبي وكتابة الشعر العمودي وتأليف المسرحيات والمونولوجات الفكاهية. وكون مع المرحوم عتيق سعيد - الإذاعي المعروف - ثنائياً مسرحياً مشهوراً، حيث نهضا بالفن المسرحي المدرسي بمدرسة الحد الابتدائية، حيث كانا يعدان المسرحيات ويؤلفان لها الأناشيد والمقطوعات الشعرية ويقومان بإخراجها على خشبة مسرح المدرسة .

يصف المناعي مكتبة خاله في قوله "كانت مكتبته تحوي العشرات من الكتب الحديثة في مجال اللغة والنقد الأدبي والتاريخ التي تصدرتها مؤلفات طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل واحمد أمين وغيرهم من الأدباء والكتاب في تلك المرحلة، إلى جانب احتوائها على عدد من دوواين الشعر لأبرز الشعراء العرب القدماء والمعاصرين، وكذلك وجود بعض الكتب التراثية المهمة. وتعرضت مكتبته للإهمال والتلف بعد أن هجرت العائلة الكبيرة المنزل القديم وتفرقت فروعها متخذة مساكن أخرى داخل البحرين أو خارجها. ولم يتسن لي الاحتفاظ بها بسبب الأوضاع والظروف الخاصة التي أعقبت ذلك وجعلتني اعتقد بأن خالي قام بنقلها معه إلى موقعه الجديد خارج البحرين، وحين علمت ببقائها داخل خرابن البيت قمت بالبحث عنها فلم أحصل سوى على عدد قليل من الكتب، التي تعرض معظمها للتلف والسرقه."

المكتبة والأرشيف.. تحريض مستمر

مكتبة "المناعي الخال" ورواشن مكتبة الشيخ المحمود أسسا لتحريض المناعي لما كل هو فيه الآن من متابعة غير عادية لكل ما يُطبع من كتب. وحوادث المكتبات وضياعها لم يغب عن باله. فكرة الأرشيف عنده

نالها شيء من ذلك. من رواشن الكتب التي فقدت أيضا.الأرشيف مصدر قوة قيل مقصودة، وقيل غير مقصودة نستمد منها الجرأة، ونستند بها. لكننا قد نخاف هذا الأرشيف، فنأتي على تدميره أو نمارس تغييره بالقوة. يأخذ الأرشيف شكل المكان الذي أنشئ فيه وما تعاقب عليه من قوى لذا هو تاريخ أيضا. أليس تاريخ الشيء ما تعاقب القوى عليه؟

عند أحمد المناعي يحضر مفهوم الأرشيف بشكله الفعلي المنجز لا النظري. هنا لا يختلط مفهوم الأرشيف بمفاهيم أخرى مثل المخزن! الأرشيف عنده أحد أوصاف للتوثيق بالورق أو الصورة أو الصوت أو ما يعرف حديثا بالتوثيق الإلكتروني. الأرشيف عنده ما يساندك عند الحاجة وما يسند ظهرك ولا يخذلك عندما تستدعيه. يحضر الأرشيف والمكتبة معاً فكلاهما يحفظان النتاج البشري الذهني في مجالات الكتابة والمعرفة. قال لي "المكتبة والأرشيف كلاهما يقود إلى الآخر ويستند عليه، ويدعو إليه. هذا الانشغال الجديد لم يؤثر على اهتمامي بالمكتبة وساعدني في الكتابة كثيرا إذ المعلومة تكون قريبة جدا منك: مكتبة وأرشيف معاً. ليس أجمل من ذلك".

الكتاب يدعو للكتاب

منذ الشيخ المحمود والكتاب يدعو إلى الكتاب، والقراءة إلى القراءة "منذ تلك الفترة صار لي اهتمام غير عادي بالكتاب. صار لي اهتمام بأن أكون مكتبة شخصية كان لها دور في تحريضي المستمر في نمو علاقة جميلة بالكتاب. وفي المرحلة الثانوية صار لي مكتبة شخصية لا بأس بها".

من البحرين سافر المناعي إلى العراق بحب الكتاب والمكتبات. عمل ونشط المناعي في أكثر من جانب. صار يهتم بركنٍ خصص لكل ما له علاقة بالخليج في المكتبة. أصبح هذا الركن أفضل ما يقدم من معلومات للطلاب الذين يدرسون مادة الخليج. من هنا، من جامعة البصرة بدأت اقتراحات المناعي تتحول إلى سيرة عملية، أخذت الجامعة، توجه اهتماماً خاصاً لتاريخ الخليج وتعطيه دوراً وأهمية كبيرين، فأخذت تبحث عن كل ما له علاقة بهذا التاريخ في المكتبات والمصادر الأخرى. يساعدها في سعيها المناعي الطالب، فإذا وجد منها شيئاً أطلع الجامعة عليها لضمها للمكتبة. كانت البصرة مليئة بالمكتبات القديمة الخاصة التي تحوي نواذر المخطوطات والكتب والوثائق، كان أشهرها مكتبة "باشا أعيان" وهي مكتبة قديمة تعد من أشهر المكتبات الخاصة في العراق، تقوم عائلة باشا أعيان على رعايتها والاهتمام بشؤونها منذ القرن الرابع الهجري. ولعبت دوراً مهماً في إفاضة الباحثين والدارسين في كل مجالات الأدب والتاريخ. كان في البصرة أيضاً شخصيات أدبية وباحثون لهم اهتمام كبير بحفظ الوثائق والمخطوطات القديمة وعلى دراية واسعة بها. هذه البصرة في قمة حيويتها الثقافية، على رغم الوضع السياسي غير المستقر. يقول المناعي "عشت فيها أوقات سعيدة لا تنسى، ماتزال يومياتها في ذاكرتي".

الكتاب هوية عراقية

تخرّج المناعي في جامعة البصرة العام 1968 بشهادتين: الأولى الجامعية في الآداب بدلاً من العلوم لحبّه للكتاب الذي غير توجهه نحو الأدب، والثانية شهادة من رئاسة الجامعة تقدر مساهماته البارزة في تأسيس جامعة البصرة وفي أهم مكتبة متخصصة عن الخليج العربي في الجامعة، وتشكره على نشاطاته ومشاركاته الثقافية. يقول المناعي "هذه الشهادة تعتبر أهم من الشهادة الدراسية، لكنني حزين لضياعتها أثناء نقل مكتبتي من بيتنا في قرية قلالي إلى المنامة".

كان العراق غير، والجو الثقافي في تلك الفترة في أوجه. الكتاب هوية عراقية بامتياز. دوريات مختلفة، أنشطة لا تهدأ، زادت من اهتمام المناعي بالكتاب. وفي البحرين انشغل المناعي مع رفاقه في تأسيس "أسرة الأدباء والكتاب" يقول "هذه الانشغالات دفعتني أكثر فأكثر لاقتناء الكتاب. صرت أشتري كل ما يدخل في حقل اهتمامي الثقافي الفني".

المناعي.. جمارك الكتب حوارات

الوقت - حسين المحروس:

صار معروفاً لكثرة ما صودرت له كتب تأتيه من الخارج. أحمد المناعي يطارد الكتاب على نهج "أينما تمطرين يأتيني خراجك" في شكل "أينما تكتبين..". لا يكتفي بشراء نسخة واحدة من الكتاب، وإذا ما تعذر الحصول على النسخة الثانية لا يفتقر حتى يجلبها أينما كانت. يقول "علمتني وقائع اختفاء كتبي بقصد وبغير قصد أن لا أقتني نسخة واحدة من الكتاب. أنا حريص على كتبي غير أن حبي لمساعدة الباحثين يغلبني فلا أرى آفة الإعارة من خلفها. أه.. تعرف يا حسين يصعب ملاحقة المستعير ومطالبته خصوصاً إذا كان صديقاً. ولا يكتفي أحياناً فيحوّله هذا الصديق إلى آخر" فقد المناعي كتباً مهمة كثيرة بسبب الإعارة ظناً منه أنه سيجدها في يوم ما، أو يشتريها لكن ذلك لا يحدث.

يقول أسفاً لعلّ المستعير يقرأ آهة المناعي الآن "فقدت الطبعة القديمة الأولى لكتاب التحفة النبهاية وما لدي سوى نسخة مصورة عنها. لا أعرف من استعارها مني في قرية "قلالي" بالبحرق؟ فقدت مخطوطات ثمينة نتيجة الإهمال وعدم احتفاظي بها في أماكن آمنة."

يسافر المناعي لإحضار وثيقة واحدة أو كتاب نادر. يتواصل يتحاور من أجل إرسال كتاب إليه من الخارج حتى أكثر من ذلك فصار مسؤولو الجمارك في مداخل البلاد يعرفونه: هذا لا يحضر إلا كتباً. كثيراً ما كانت كتبه تتعرض للتفتيش والمصادرة فلا يهدأ حتى يحصل عليها أو على بعضها. "عندما تصدر كتبي من قبل الجمارك أذهب للتفاوض من أجل الإفراج عنها. قابلت هندرسون مرتين في هذا الشأن. كان يسألني: لماذا تجلب هذه الكتب؟ وماذا تفعل بها؟ كانوا ينظرون إلى أنك سوف تشيع ما فيها وتشره. كان هناك تشديد على ذلك في الستينات وبداية السبعينات وإحضار الكتاب ممنوع يعتبر مخالفة سياسية. كنت معروفاً في الجمارك والداخلية بسبب إحضار كتب كثيرة. ولكوني ناشطاً ثقافياً من دون الانتماء إلى أي حزب سياسي. المصادرة تتم بشكل رئيسي في الكتب التي تتناول البحرين موضوعاً لها، أو تشير إلى معلومات مخفية، أو تاريخ ناله النقص المتعمد، أو معلومة نطقت بها المعارضة خارج البلاد."

بدأت سيرة تضيق حرية وصول الكتاب وانتشاره مع بدء محاولات القضاء على نشاط "الهيئة" وإبعاد رجالها. وبعد عودة الحياة السياسية في منتصف الستينات زاد التشديد في مراقبة الكتب والانتاج الثقافي الأدبي، يقول المناعي "تعرض أدباء وكتاب للتحقيق والسجن والملاحقة من أجل قصيدة أو كتاب مثلما تعرضت الكتب التي أحضرها من الخارج. لكنني أتحاور مع الداخلية من أجل الحصول عليها. كنت أقول لهم: أنا شخص قارئ ليس لي هدف سياسي من اقتناء هذه الكتب لكن هذه المبررات غالباً لا تكون مقنعة لذا تصدر كتبي حتى لو كان بعضها لا علاقة له بالبلاد."

لكن ماذا يحدث لو أرسل لك أحد المؤلفين المغضوب عليهم كتاباً له ولم يفته أن يكتب لك بكل ذوق إهداء لك فيه اسمك واضحاً؟ يقول المناعي "سوف يسألونني عن علاقتي بهذا المؤلف؟ هل تعتقد أفكاره؟ هل لك معه تواصل الآن؟ ويسألونني عن علاقتي بكتاب من جهتي التحرير أو الشعبية وهم يعرفون أنني من أسرة الأدباء."